

تاريخ الإرسال (2016-09-22)، تاريخ قبول النشر (2017-05-07)

د. فادي عبد الرحيم وحمود خطاب^{1*}

¹وزارة التربية والتعليم - طولكرم - فلسطين

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: Fa_k1978@hotmail.com

وصف الطبيعة الشامية في الشعر الأموي

الملخص:

يتناول هذا البحث الحديث عن الأماكن والمواقع الشامية الطبيعية، من خلال تسليط الضوء على الأشعار التي قيلت في وصف بلاد الشام في العصر الأموي. ويحاول البحث أن يقدم صورة واضحة للشام، من خلال رصد الأشعار التي عنيت بإبراز جغرافية المكان الشامي في الشعر الأموي على اختلاف أبعاده ودلالاته. وتزخر بلاد الشام بطبيعتها الغناء المتنوعة الجميلة التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها، ففيها الصحراء الواسعة وفيها الرياض والبساتين والبحار والأنهار والجبال والسهول، وغيرها من المظاهر والظواهر التي استرعت انتباه الشعراء فراحوا يتغنون بها ويصفونها، وقد اختار الباحث المنهج الوصفي في دراسته للنصوص الشعرية، وذلك باستقراء نماذج شعرية ذكرت الأماكن الشامية، وعمد شعراؤها إلى إبراز المضامين الدالة على مكانة الشام وأهميتها ودورها في الكثير من الأصعدة.

كلمات مفتاحية: شعر أموي، بلاد الشام، المكان الشامي، وصف الشام.

Description of nature shami in the Umayyad Poetry

Abstract

This paper dwells on geography of places and sites in natural Syria. To this end, the researcher shed light on poetry composed to describe Bilad Esham during the Umayyad era. The researcher has tried to give a clear picture of Esham through documentation of verse which had highlighted geography of the place in Umayyad poetry in all its dimensions and significance. Greater Syria abounds with its beautiful nature which Allah has blessed it with. It has a vast desert, gardens, rivers, mountains and plains. This is in addition to other features and natural phenomena which had drawn the attention of poets and inspired them to produce lyrics describing its beauty. In his study of this poetry, the researcher used the descriptive method. He inductively representative samples of this poetry in which poets described the places and sites and highlighted the significant implications of Greater Syria in terms of its role, status and importance in all aspects of life.

Keywords: Umayyad poetry; Greater Syria; description of Greater Syria; and the Syrian place.

المقدمة:

وهب الله بلاد الشام موقعاً جغرافياً مهماً وطبيعة ساحرة غناء، فضربت بذلك المثل الأعلى في جمال طبيعتها، واعتدال مناخها واختلاف تضاريسها وروعة مناظرها، فكانت صفوة الله وجنته في أرضه. فحظيت بنصيب في قصائد الشعراء الذين تناولوها بالوصف والصور الفنية التي جمعت بين حقيقة الطبيعة وخيال الشعراء الواسع، فجاءت أوصافهم تحاكي مظاهر البيئة الشامية التي وقعت تحت أنظارهم، وتوقفوا عند مشاهدتها في البادية والحاضرة، حيث جمعوا ومزجوا بين جماليات الطبيعة في البر والبحر والكون.

تمتد بلاد الشام لتشمل البقعة الواقعة بين الفرات إلى العريش من الديار المصرية، ومن جبلي طيئ حتى بحر الروم غرباً، ويحدها من الشمال بلاد الروم⁽¹⁾، فيما يعرف الآن بالأقطار العربية الأربعة: سورية والأردن ولبنان وفلسطين. وقد قسمت بلاد الشام إدارياً في العهد الأموي إلى خمسة أجناد: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين⁽²⁾. كما وردت هذه التسمية في الشعر الأموي، فقال الفرزدق مخاطباً نفسه:

فقلت ما هو إلا الشام تركبهُ كأنما الموت في أجناده البَعْرُ⁽³⁾

استحضر الشعراء الأمويون في أشعارهم جملة من الأماكن الشامية الطبيعية التي تفوح منها رائحة التاريخ في حوادثه ووقائعها، حيث قرنوا أسماءها بمجموعة من الأبعاد ذات الدلالات الشاخصة على مجريات التاريخ، هذه الأبعاد التي توضح دور المكان الشامي في الحياة العامة والخاصة، وتبين نظرة الشعراء إلى بلاد الشام، وكيفية تصويرهم لها مما يعكس طبيعة العلاقة بين هذه البلاد والشعراء في هذه الحقبة الزمنية.

وقد تركت البلدان الشامية أثراً واضحاً في انفعالات الشعراء وتعبيراتهم عن الأحداث التي عصفت ببلاد الشام في ظل الدولة الأموية، فكانت تمثل لهم الواقع بأبعاده المختلفة. جاء ذلك في معرض انطباع الشعراء الذين عرفوا الشام، وتكون لديهم شعور تجاهها، سواء من كان مقيماً فيها أو راحلاً عنها أو وافداً إليها.

وأسهمت الأشعار التي ذكرت المكان الشامي إسهاماً كبيراً في تخليد ذكره، وبيان قيمته، وتوضيح نوع العلاقة القائمة بين الحياة العامة والمكان من جهة، وبين الشاعر والمكان من جهة أخرى، لأن من الشعراء من كانت الشام موطنه ودار سكناه، فهو يصلح ويجول فيها ذاكرها مآثرها فيها، واصفاً طبيعتها بكل تفاصيلها، أمثال الأخطل والقطامي وعدي بن الرقاع العاملي. وكان أكثرهم وافداً إليها حيث أقام فيها حيناً من الزمن، فتركت أثراً في حياته وثقافته، وتركت انطباعاتاً إيجابية أو سلبية في ذاكرته ومخيلته، إذ أرّخ في أشعاره للمكان وطبيعة حياته فيه، أمام تداعيات طموحاته وآماله التي يسعى إلى تحقيقها، كان من أبرزهم الفرزدق وجريير وعبيد الله بن قيس الرقيات. وكان الطرماح بن حكيم من أبرز الراحلين عن بلاد الشام الذي ظل متعصباً لها منافحاً عنها، مفتخراً بالانتماء إلى قبائلها. وتجدر الإشارة إلى مشاركة بعض السياسيين في أشعارهم القليلة في مجريات الأحداث الدائرة في الشام، منهم على سبيل المثال معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ومسلمة بن عبد الملك.

¹ - انظر الحموي، معجم البلدان، ج3، ص312. معجم البلدان، ج3، ص312.

² - انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص103.

³ - الفرزدق، الديوان، ص165. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص103. (البغر: داء العطش الذي يصيب الإبل فتشرب ولا تروى وتمرض عنه وتموت. الجوهري، الصحاح، مادة بغر).

(1) بلاد الشام وشعر الوصف:

إن الوصف من أهم الأغراض الشعرية وأكثرها انتشاراً في الشعر العربي، إذ يتداخل مع الأغراض الأخرى كالممدح والغزل والرتاء والحنين وغيرها حتى قال عنه ابن رشيق في باب الوصف: "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وإن أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع..."⁽⁴⁾.

وعرّفه قدامة بن جعفر بقوله: "الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"⁽⁵⁾. والشاعر العربي طيلة حياته في الصحراء يواكب الطبيعة بكل مظاهرها، بسمائها وأرضها، ويحاكيها محاكاة فنية، فهو "يستمدّ مواضيعه من طبيعة بيئته، يتأثر بها ويؤثر فيها، محاولاً أبداً أن يعبر عن تأثيره وتأثره"⁽⁶⁾.

إن المكان من أعظم العوامل المؤثرة في الشعر، فهو الباعث لفنونه والمكون لأغراضه، فالبيئة تعطي الشاعر بعض ما عندها مما أعطيت، وتحرمه مما حرّمته⁽⁷⁾، فإذا كان شأنها مع الإنسان بشكل عام؛ فكيف بالشاعر الذي يرى ما لا يراه الآخرون، ويرسم بريشته ما لا يستطيعه غيره.

والشاعر في وصفه الجيد للأشياء إنما هو يحاكي الموصوف، ويقربه للذهن حتى يتراءى للسامع⁽⁸⁾، فهو "فنان عبقرى رسم وصور ووصف بالكلمات ما رآه وما أحسه في بيئته ونفسه... لذلك كان الوصف من أقدم فنون الشعر"⁽⁹⁾.

لقد وصف الشعراء المقيمون في الشام والوافدون إليها كل شيء استهوى نفوسهم وشاهدته أعينهم، فأنجذبوا إليه ابتداء بوصف الأطلال والطبيعة الساحرة التي خُصّت بها بلاد الشام، بما فيها من مناخ جميل ورياض وبساتين وأنهار، ومظاهر الصحراء ومشاهد الكون. فراحوا يصفونها ويتخذونها نماذج لصورهم الفنية، مع تفاوت فيما بينهم في جودة أشعارهم.

(2) الطلل والجغرافية الطبيعة:

تعد الأطلال منظراً بدوياً أصيلاً خالداً في الشعر العربي، إذ أفرد له القدماء متسعاً في مؤلفاتهم منذ أن أرسى الشعراء الجاهليون تقاليدته الثابتة، وحددوا معالم وصفه ومذاهب القول فيه⁽¹⁰⁾، فكان رمزا فنياً لا يحيد عنه الشعراء اللاحقون، ولا سيما شعراء العصر الأموي، الذين بدأوا قصائدهم بالوقوف عليها ووصفها محافظين بذلك على موروثهم الشعري، وتقاليدهم الفنية.

وقد جرى حديث شعراء العصر الأموي عن الطلل على وجهين: عام وخاص. أما العام فالتقى الطلل الشامي مع بقية الأطلال الأخرى في مختلف الأماكن في رحيل أهلها ووصف خرابها بسبب عوامل الطبيعة من الرياح والأمطار والرمال. أما خصوصية الطلل الشامي فتمثل في أسماء البلدات والمواضع الشامية بما تمتاز وتتصف به من صفات مادية تختلف عن غيرها من البلدات الأخرى، وعلاقة الشاعر مع هذه البلدات أكثر من غيرها. إذ لم يكتف بعض الشعراء بذكرها بل إنه كان يمعن في وصف مآثرها وفضائلها ويعمد إلى مخاطبتها والحديث معها واستعطافها والطلب منها مشاركته البكاء على أهلها.

⁴ - القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ص294.

⁵ - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم، ص130.

⁶ - حاوي، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ص20.

⁷ - انظر قناوي، الوصف في الشعر العربي، ص8.

⁸ - انظر بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، القاهرة، ص277.

⁹ - الهيب، الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء، ص137.

¹⁰ - انظر العالم، وصف الطبيعة في الشعر الأموي، ص277.

ويكشف وصف الأطلال التي احتفظ الشعراء بموروثها الفني في العصر الأموي عن جانب مهم من جوانب الأبعاد النفسية الحافلة بالمشاعر الجياشة التي جادت بها عواطف الشعراء، وعلى الرغم من أن الأطلال جزء من الطبيعة التي وصفها الشعراء القدماء في صحرائهم شاكين في أشعارهم من قلة الماء وظلم الطبيعة الصحراوية لسكانها؛ إلا أن كثيرا من أطلال الشام أوجدها الشعراء في البيئة الخضراء والطبيعة الغناء بالماء والخضرة من خلال ذكر الكثير من البلدات والمواضع الزاخرة بالحياة ومصادر المياه، يتجلى ذلك في مقدمة الأخطل الطللية التي وقف فيها على أطلال الديار في البلدات الشامية كالدخول والفراشة والحبيا، فقال:

منازلُ أقفرت من أم عمرو يظل سرايبها فيها يجولُ
شامية المحل وقد أراها تعومُ لها بذى خيم حمولُ
ولو تأتي الفراشة والخبيا إذا كادت تكلمك الطلولُ
عن العهد القديم وما عفاها بوارحُ يختلفن ولا سيون⁽¹¹⁾

(3) الرحلة والطبيعة الشامية:

أشار الشعراء إلى الطبيعة الشامية في مختلف أغراضهم الشعرية التي وصفوا فيها رحلاتهم وتنقلاتهم. سواء من كان مستقرا فيها فينتقل فيها ويجوب بلدانها فيصف كل شيء استرعى سمعه وبصره وانتباهه، أمثال عدي بن الرقاع العاملي والقطامي والأخطل وغيرهم، أم من كان يفد إليها فيصف طريق رحلته إليها عبر البلدان الشامية التي يمر بها، ويعرض لمناخها وطبيعتها ومياهها، أمثال الفرزدق وجريز وكثير عزة وغيرهم. وكثيرا ما كان هؤلاء الشعراء الوافدون يقرنون ذكر هذه البلدان ببلدانهم تعبيرا عن حجم المسافات التي قطعوها للوصول إلى ممدوحهم، أو تأتي في باب الشوق للأهل والخلان، والحنين إلى الديار والأوطان. وكان وصف الرحلة بشكل عام عنصرا بارزا في القصيدة الأموية، سواء أكانت رحلة المحبوبة أم رحلة الشاعر تجاه الممدوح في بلاد الشام، وهم بذلك يعربون عن جغرافية الأماكن ومناطق سكن القبائل العربية في الشام، وكان من جملة هذه الإشارات الشعرية دالة على مواضع القبائل العربية التي استقرت في الشام قول الأخطل:

وكم جاوزت بحراً وليلاً يَحُضُّنه إليك أمير المؤمنين ومن سَهَبِ
عوادلٍ عوجاً عن أناسٍ كأنما ترى بهم جمع الصقالبة الصُهْبِ
يُعارِضُن بطن الصَّخْصَحانِ وقد بدتْ بيوتٌ بوادٍ من نميرٍ ومن كَلْبِ
ويامنٌ عن نجدِ العقابِ وياسرُتْ بنا العيسُ عن عذراء دار بني الشَجْبِ
يَخْدُن بنا عن كل شيء كأننا أخاريسُ عيوا بالسلام وبالنَّسْبِ⁽¹²⁾

وهذا القطامي يشير إلى جغرافية المكان الشامي في حديثه عن الطعائن التي تقل المحبوبة وأهلها عبر المواضع الشامية، واصفا البلدان التي مرت بها المحبوبة والمناخ العام لهذه الأمكنة في رحلاتهم، مصورا تضاريس المكان وجغرافيته، فهو ينتقل في حديثه من الصحراء إلى الطبيعة، ومن الطريق السهلة إلى الطريق الوعرة، ذاكرا أنواعا من النباتات فيها وواصفا نباتاتها ورمالها، كما يبدو في قوله:

يمشين رهواً فلا الأعجازُ خاذلةً ولا الصدورُ على الأعجازِ تتكَلُّ

¹¹ - الأخطل، الديوان، ص 264-265. (الحبيا والفراشة موضعان ببادية الشام. انظر الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 215. ج 4، ص 243).

¹² - الأخطل، الديوان، ص 40.

فَهُنَّ مُعْتَرِضَاتٌ وَالْحَصَى رَمَضُ والريحُ ساكنةٌ والظلُّ معتدلُ
لما وردنَ نَبِيًّا واستنَّبَ بها مُسْحَنَفَرٌ كخُطوطِ السَّيْحِ مُنْسَجَلُ
ثم استمرَّ بها الحادي وجنَّبها بطنٌ التي نبئها الخُودَانُ والنَّقْلُ
حتى وردنَ رَكِيَّاتِ العَوِيرِ وقد كاد الملاءُ من الكَتَانِ يشتعلُ
وقد تعرَّجَنَ لما ورَّكَّتْ أركَا ذاتُ الشِّمالِ وعن أيمانها الرِّجْلُ
سمعتها ورعائُ الطُّودِ مُعْرِضَةٌ من دونها وكثيبُ العَيْنَةِ السَّهْلُ
فقلتُ للرَّكِبِ لِمَا أن علا بهمُ من عن يمينِ الحَبِيَّا نظرةٌ قُبْلُ
ألمحة من سنا برقي رأى بصري أم وجه عاليةً اختالت به الكِلْ (13)

استطاع الشاعر في الأبيات السابقة أن يرسم صورة للمكان الذي رحلت فيه المحبوبة، وذلك بأن أحكم الدقة في وصفه لنواحي الشام وما امتازت به من مناخ ووفرة في المياه والمراعي الغناء. والجدير بالذكر أن مشهد ارتحال الطعائن عرف قديماً منذ العصر الجاهلي، وأفرد له الشعراء مساحة في مقدمات قصائدهم، إذ التزم معظم شعراء العصر فيما دعا إليه الأقدمون في باب الرحلة ومن قبله الوقوف على الأطلال، وكان ابن قتيبة من النقاد الأوائل الذين دعوا إلى ضرورة الاحتفاظ بهذا الموروث الفني، والالتزام به ولاسيما بافتتاحية القصيدة، فهذا مذهب الأوائل، وذوق العصر الذي لا يقبل التجديد، ولا يصح الخروج عليه، وذلك بقوله: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مُشَيِّدِ البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير" (14).

وقد وصف عبيد الله بن قيس الرقيات الطريق التي سلكها عبر الأماكن الشامية للوصول إلى ممدوحه في العراق عبد الله بن طلحة الطلحات، وذكر الكثير من البلدان الشامية التي قطعها في رحلته تجاهه كحوران والعوير وسواء والقريتان، وقد جاءت رحلته هذه بعدما عانى في الشام من ألم الاغتراب، كما يبدو في قوله:

وسرت بغلتي إليك من الشا م وحورانُ دونها والعويرُ
وسواء والقريتان وعين الدَّ مِرْ خَرْقُ يَكُلُ فيه البعيرُ (15)

وأتى الفرزدق على المسافة التي قطعها الحجاج في رحلته ما بين الشام والعراق، فقد انطلق الحجاج في رحلته السياسية

من بيت المقدس إلى واسط العراق، معرباً عن السرعة التي قطعت بها هذه المسافة في زمن قصير، كما يبدو في قوله:

¹³ - القطامي، الديوان، ص 27-28. (نبي: موضع في الجزيرة من ديار تغلب قرب الفرات في الطريق المؤدية إلى الأردن وناحية حمص. انظر الحموي، معجم البلدان، ج 5، 259). (مسحفر: البلد الواسع أو الطريق الواسعة السهلة تقطع بسرعة. انظر الجوهري، الصحاح، مادة سحنفر). (الخودان: نبات طيب الطعم له زهرة حمراء في أصلها صفرة بنبت في السهل. انظر لسان العرب، مادة حوذ). (النفل: نبات طيب الرائحة له زهرة صفراء. انظر لسان العرب، مادة نفل) (العوير: من قرى الشام بين تدمر وحلب. انظر معجم البلدان، ج 4، ص 170). (أرك: أرض قريبة من حلب، انظر معجم البلدان، ج 1، ص 153). (الرجل: مفردا رجلة وهي البقلة التي تنبت على طرق الناس ومسائل الماء. انظر لسان العرب، مادة رجل). (العينة: هي الأرض السهلة، وهي بلد بالجزيرة، وأرض بناحية الشام. انظر معجم البلدان، ج 4، ص 171). (الحبيا: موضع بالشام. انظر معجم البلدان، ج 2، ص 216).

¹⁴ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 32.

¹⁵ - الرقيات، الديوان، ص 19. انظر الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 170.

لو أن طيرا كُلفت مثل سيره إلى واسطٍ من إيلياء لكَلتِ

سما بالمهاري من فلسطين بعدما دنا الفيء من شمس النهار فولَّت
فما عادَ ذاك اليومُ حتى أُنَاحَها بميسانٍ قد خُلَّتْ عُراها ومَلَّتْ⁽¹⁶⁾

وكشف كثير عزة عن الطريق التي سلكها عند رحلته إلى دمشق، ووفوده على عبد الملك بن مروان، التي بدأها من أرض الحجاز، مروراً بالأراضي والصحاري القاحلة التي لا نبت فيها، إلى أن وصل إلى مشارف الشام ورياض بصرى والبسيل من أرض حوران، فقال:

سيأتي أمير المؤمنين ودونه صمادٌ من الصَّوان مرَّتْ ميولُها
فبيدُ المنقَى فالشارفُ دونه فروضةٌ بصرى أعرضتْ فتبسلُها⁽¹⁷⁾

ويمدح عبيد الله بن قيس الرقيات فلسطين وأهلها الذين أكرموا وأنزلوه في أرضها الخصبة، وقد فضلها على الرقة من أرض الجزيرة، وكان قد هرب منها، فقال:

فانزلي في بني كنانة تلقني فيهم العزَّ إن دعوتِ قريباً

طال ما قد نزلتِ في غدواتِ الـ أرضٍ أقروا بك المكانَ الخصيباً

حَلَقَ من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الرُّكوبا⁽¹⁸⁾

إن تتبع الشعراء للمواضع والأراضي الشامية في رحلتهم إلى ممدوحهم من الخلفاء والأمراء فُصد به استرعاء انتباه الممدوح إلى مقدار العناء الذي لحق بالشاعر وقد حفته المخاطر عبر رحلته الطويلة. ومن جهة أخرى كشف عن بيان تقارب الأماكن الشامية من بعضها، وعدم تباعدها جغرافياً، فضلاً على أن المكان الشامي كان يستهوي الممدوح الأموي.

4) الصحراء في الشام:

أشار الشعراء إلى جملة من الصور الطبيعية والأشكال الطبوغرافية لبلاد الشام، كالجبال والهضاب والسهول، والصحراء القاحلة والطبيعة الخصبة. ولقد اهتم الشعراء بذكر الصحراء ببادية الشام، التي اجتازها الكثير من الشعراء المقيمين أو الوافدين إلى بلاد الشام، وكان الشاعر العربي منذ القدم قد ارتبط بالصحراء ارتباطاً وثيقاً، فقد وصفها وعبر عن مخاوفه منها، واقتارعه باجتيازها رغم مخاطرها وأهوالها.

وكان الشعراء قد وصفوا الصحراء الشامية، ونوَّهوا إلى اهتمام الخلفاء بالبوادي والصحراء التي كانوا يخرجون إليها ويسكنون فيها، وربما كانت مخاوفهم من أمراض الحواضر جعلتهم يتجهون صوب البوادي ويقيمون فيها بين الحين والآخر، وكان الوليد بن عبد الملك من أكثر الخلفاء حبا للبادية، إذ أنشأ فيها القصور الكثيرة مثل قصر عمرة والأزرق واللؤلؤ⁽¹⁹⁾.

¹⁶ - الفرزدق، الديوان، ص 108.

¹⁷ - كثير عزة، الديوان، ص 260.

¹⁸ - الرقيات، الديوان، ص 109.

¹⁹ - انظر علي، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد وحتى نهاية العصر الأموي، ص 205. ماجد، التاريخ السياسي، ج 2، ص 241-242.

وتمتد بادية الشام في اتساعها وعظمتها، حتى عبر الأحوص عن امتدادها وكبرها، مصورا حركة السراب فيها بقطعة من القماش الطويلة المنسوجة في صحرائها، فيقول وقد حن إلى أهله ودياره من قصر الموقر:

وشاقتك بالموقر أهل خاخ
فلا أمم هناك ولا قريب

وكم لك دونها من عرض أرض
كأن سرابها الجاري سيب⁽²⁰⁾

ويصف عدي بن الرقاع العاملي رحلته إلى مدح الوليد بن عبد الملك في بادية الشام التي صورها ببحر كبير يبدو فيه الجبل كأنه ذؤابة سابح في البحر، كما صور حركة النوق السريعة في صحرائها الواسعة كأنها تسبح في بحر ممتد، كما يبدو في قوله:

وإذا بدا علم لهن كأنه
في الآل حين بدا ذؤابة عائم

سبحت إليه صدورهن بأذرع وفراسن سمر العجا ومناسم⁽²¹⁾

وهذه الصورة الفنية قد رسمها الشعراء الجاهليون في تشبيههم الطعائن المرتحلة في عرض الصحراء الواسعة بالسفن الجارية في البحر⁽²²⁾.

وكان الشعراء قد وفدوا على الخلفاء في صحراء البادية كما وفدوا عليهم في الحواضر، فهذا الأحوص وقد وافى من مرتفعات مدينة عمان يصف الصحراء في بادية الشام الممتدة من جنوب عمان إلى حدود الحجاز في لون ترابها وحجارته المائلة إلى الحمرة والكدر، وفي سعتها وطولها التي تضم بلدة معان في الجنوب، فقال:

نظرت على فوت وأوفى عشية
بنا منظر من حصن عمان يافع

لأبصر أحياء بخاخ تضمنت
منازلهم منها التلاع الدوافع

ومن دون ما أسمو بطرفي بأرضهم
معان ومغبر من البيد واسع⁽²³⁾

وقال في قصيدة أخرى يصف سعة الصحراء في بادية الأردن، وقد ارتفع بأرض الموقر ليرى ما امتد إليه بصره من أراضي الشام، فقال:

نظرت رجاء بالموقر أن أرى
أكاريس يحتلون خاخا ومثندا

وأوفيت من نشز من الأرض يافع
وقد يشعف الإيفاء من كان مقصدا

فحالت لطرف العين من دون أرضها
وما أتلي بالطرف حتى ترددا

شهوّب وأعلام كأن سرابها
إذا استنّ يغشيها الملاء المعصدا⁽²⁴⁾

(5) الجبال في الشام:

²⁰ - الأحوص، الديوان، ط2، ص98. (خاخ: موضع بين الحرمين يقال له: روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص335). (السبب والسبب: شقة الكتان الرقيقة وقطعة القماش الطويلة، شبه السراب بها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سبب).

²¹ - العاملي، الديوان، ص124. انظر القطامي، الديوان، ص60-63. يصف فيها الطبيعة والثور الوحشي.

²² - انظر عطوان، مقالات في الشعر ونقده، ص81.

²³ - الأحوص، الديوان، ص184.

²⁴ - الأحوص، الديوان، ص117-118.

وكثيراً ما وصف الشعراء جبال بلاد الشام مصورين طولها وجمالها وقوتها، حيث يصف العاملي الجبال المرتفعة في معرض وصفه لأعمال البناء التي قام بها خلفاء الدولة الأموية في طريقهم نحو الحضارة العمرانية، إذ كانت توفر لهم حجارة البناء القوية، فهي في فصل الشتاء مكسية بالثلج وفي فصل الصيف عارية، كما يبدو في قوله:

من كلّ أبهم يكسو الثلج ذروته
حتى فشا وبدا في الصيف غريانا
صعب الشواهي مغبر بناكبه
ترى به المغيرات العصم أخذانا

به كلوم صوافير مُدَكَّرَة ترُّ منه ضواحي الصَّخَرِ إرنا(25)

وثمة علاقة بين جبال الشام والمناخ الطبيعي لها، فقد أتى الشعراء على وصف جبال لبنان الشاهقة واتصافها بكثرة ثلوجها، حتى عرفت بجبال الثلج، كما قال جرير:

هل دعوة من جبال الثلج مسمعة أهل الإياد وحيًا بالنباريس(26)

ويكشف الفرزدق عن تضاريس جند فلسطين التي زارها، ففيها الجبال العالية وفيها المنخفضات والأغوار، بقوله:

لوى ابن أبي الرقراق عينيه بعدما دنا من أعالي إيلياء وغورا
رجا أن يرى ما أهله يبصرونه سهيلاً فقد وراه أجيال أعفرا(27)

(6) الطبيعة الخضراء في الشام:

تزرع بلاد الشام بطبيعتها الغناء المتنوعة الجميلة التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها، ففيها الصحراء الواسعة وفيها الرياض والبساتين والبحار والأنهار والجبال والسهول، وغيرها من مظاهرها التي استرعت انتباه الشعراء فراحوا يتغنون بها ويصفونها. فكانت لأهلها وللوافدين عليها ذات فائدة مادية غذائية، وكذلك تمت فائدتها المعنوية من خلال ارتيادها للراحة والاستجمام في العصر الأموي وما تلاه من العصور اللاحقة.

إن أكثر الشعراء وصفا للطبيعة الشامية هم الشعراء الشاميون الذين استقروا فيها وتقلوا بين رياضها وبساتينها، فهذا العاملي يصف روضة غناء تكثر فيها الطباء المتقلة من روضة لأخرى في مواضع بالشام، فقال:

مَجَّ الربيع بها الوسمي ريقته فأنبئت نقلاً رُوداً وحوذانا
تحنو إلى أكحل العينين ران به نوم النهار فما ينفك وسنانا
إذا هي اطلعت من روضة هبطت أخرى بظل بها العيسوب حيرانا(28)

وكثر الحدائق والبساتين في الشام لوفرة الأنهار التي جرت على أراضيها، حتى وصفت بجنة الخلد، إذ يصف جرير الحدائق الغناء الموجودة في أرض الرصافة وواسط والرقّة، في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ففيها الزيتون والنخل والعنب وغيرها(29)، كما يبدو في قوله:

فتمت في الهني جنان دنيا فقال الحاسدون: هي الخلود

25 - العاملي، الديوان، 172-173.

26 - جرير، الديوان، ص 250. ورد اسم جبال لبنان كثيراً في الشعر الأموي. انظر الأنصاري، عبد الرحمن، الديوان، ص 58.

27 - الفرزدق، الديوان، ص 176.

28 - انظر العاملي، الديوان، ص 168-169.

29 - كان الخليفة هشام بن عبد الملك قد شق الأرض وأجرى الأنهار وأصلح الأراضي في الرصافة وواسط مما زاد في جمال الطبيعة.

يُعْضُونَ الْأُنَامِلَ إِنْ رَأَوْهَا بِسَاتِنًا يُؤَازِرُهَا الْحَصِيدُ
 بِهَا الزَيْتُونُ فِي غُلٍّ وَمَالَتْ عَنَاقِيدُ الْكُرُومِ فَهَنْ سَوْدُ
 وَمِنْ أَزْوَاجٍ فَالْكَهْ وَنَخْلٍ يَكُونُ بِحِمْلِهِ طَلْعُ نَضِيدٍ⁽³⁰⁾
 واشتهرت الشام بكثرة كروم العنب في القرى والبلدات الشاميّة، ذات المناخات الطيبة في الأرض الزراعية الخصبة، ما جعل الشعراء
 يكثر من وصفها ووصف الخمرة المصنوعة منها، قال عدي بن الرقاع العاملي:
 عُصَارَةٌ كَرْمٍ مِنْ حُدَيْجَاءَ لَمْ تَكُنْ مَنَابِتُهَا مُسْتَحْدَثَاتٍ وَلَا قِرْعَا⁽³¹⁾
 وكشف الأخطل عن جودة العنب الأبيض، في مدينة صرخد، وأشار إلى كثرة كروم العنب في رؤوس الجبال في الشام،
 حيث يأتيها التجار لشراء الخمرة المصنوعة منها. فقال:
 صُهْبَاءُ صَافِيَةٌ تَنْزَلُ تَجْرُهَا بِبِلَاطٍ صَرَخَدَ مِنْ رُؤُوسِ جِبَالٍ
 مِنْ قَرْقَبٍ الزَّرْجُونُ فَتُ خَتَامُهَا فَالْدُّنُّ بَيْنَ خَنَابِجٍ وَقَلَالٍ⁽³²⁾
 يتحدث أبو دهب الجمحي عن أشجار الزيتون اللينة في دمشق المحيطة بالمباني من كل جانب، فقال:
 فِي قَبَابٍ وَسَطَ دَسَكِرَةٍ حَوْلَهَا الزَيْتُونُ قَدْ يَنْعَا⁽³³⁾
 ويشير الأخطل إلى أن الشام بما فيها الجزيرة الفراتية سلة القمح والتمر، لما فيها من سهول القمح في حوران، وبساتين
 القمح على ضفاف الأنهار، جاء ذلك في معرض هجائه لقبيلة قيس بعد هزيمتهم في أرض التُّدَيِّ بالشام، فقال مخاطباً لهم:
 وَلَمَّا رَأَى الرَّحْمَنُ أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ رَشِيدٌ وَلَا نَاهٍ أَخَاهُ عَنِ الْغَدْرِ
 أَمَالَ عَلَيْهِمْ تَغْلَبَ ابْنَةَ وَائِلٍ فَكَانُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ رَاغِيَةِ الْبُكْرِ
 فَسَيَرُوا إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ فَإِنَّا نَفِينَاكُمْ عَنْ مَنَبِتِ الْقَمْحِ وَالثَّمَرِ⁽³⁴⁾
 وعلى الرغم من الخصوبة التي تشهدها الطبيعة في بلاد الشام، إلا أن بعض نباتاتها فيها ملوحة، ولا ترعاه إلا الإبل
 لملوحته، كما يبدو في قول الراعي النميري:
 رَعِيَنَّ الْحَمَضَ حَمَضَ خُنَاصِرَاتٍ بِمَا فِي الْقُرْعِ مِنْ سَبَلِ الْغَوَادِي⁽³⁵⁾
 بل إن بعض الأراضي في الشام لا تصلح للزراعة ولا ينبت فيها العشب للمرعى ولو جادوا عليها بالماء الوفير، كما قال
 الأخطل:
 وَلَا تُثَبِّثُ الْمَرْعَى سِبَاخُ غُرَاعِرٍ وَلَوْ نُسِلَتْ بِالْمَاءِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ⁽³⁶⁾

³⁰ - جرير، الديوان، ص118.

³¹ - العاملي، الديوان، ص222. (الحديجاء: قرية بالشام ينسب إليها الخمر. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص232.

³² - الأخطل، الديوان، ص456.

³³ - أبو دهب الجمحي، الديوان، ص85.

³⁴ - الأخطل، الديوان، ص443.

³⁵ - الراعي النميري، الديوان، ص77. خناصر: بلدة من أعمال حلب. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص390. الحمض: نبات فيه ملوحة تأكله الإبل فتشرب عليه الماء. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة حمض.

³⁶ - الأخطل، الديوان، ص542. (عراعر: اسم موضع ذي تربة مالحة في الشام من ديار كلب. انظر الحموي، معجم البلدان، ج4،

ص93).

(7) المناخ ومشاهد الكون في الشام:

تعددت العوامل المناخية والظروف الجوية لبلاد الشام، وكان لجملة المفردات المناخية نصيب وافر في الشعر الأموي كالثلوج والأمطار والرياح، فهذا عدي بن الرقاع العاملي يشير إلى فصل الربيع وما فيه من الخير الوفير، والمطر الغزير على بلاد الشام، فقد جاد المطر على بلدة الخنصرة⁽³⁷⁾، التي كان قد نزل بها الوليد بن عبد الملك، إذ صور الشاعر الخليفة بالغيث والخير على البلاد والعباد، يبدو ذلك في قوله:

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خُنَاصِرَةَ الأحصَى فجَادَهَا
نزل الوليد بها فكان لأهلها غيثاً أغاث أنيسها وبلادها⁽³⁸⁾

ويعرض الأخطل لصورة الأمطار الغزيرة التي تهطل في بلاد الشام، ويصور البرق بالسيوف التي تلمع، وبالنييران المستعرة، وقد انسكب المطر انسكاباً ملاً المكان فضاقت به المسالك والطرق، كما يبدو في قوله:

مُلِحَ القَطَرُ منسكبُ العزالي إذا ما قلْتُ: ألق، يستحيرُ
كأنَّ المشرفيّة في ذراه ونيران الحجاج لها سعيُرُ
بكلِّ قرارةٍ منها وفج أضاءة ماؤها ضررٌ يمورُ⁽³⁹⁾

ويرسم عدي بن الرقاع العاملي صورة المناخ الماطر في فصل الشتاء ببلاد الشام، فيذكر في هذه الصورة البرق والرعد والسحاب والمطر وريح الشّام والجنوب، التي تضرب البلدان الشامية، وقد صور المطر في تتابعه بالحبال، والبرق بالنيران التي يرمي بها المتعللون بها في خشب الغضا، كما يبدو في قوله:

يا من يرى برقاً أرقت لصفوه أمسى تاللاً في حواركه الغلى
لما تَلَخَّحَ بالبياضِ عَمَاؤُهُ حَوْلَ الغُرَيْفَةِ كَادَ يثوي أو ثوى
فأصاب أَيْمَنُهُ المَزهَرُ كُلُّهَا واقتمَّ أَيْسَرُهُ أَيْدَةً فالحثا
فكأنَّه لما تَكَثَّفَ ودُّقُهُ ظَهَرَ السَّمَاءُ واستقلَّ عن اللوى
رُكِّنَ من الأحبال فيه تَعَلَّةٌ يرمون بالنيران في خشب الغضا
لَجِبَ السَّحَابُ إذا لَمَّ ببلدةٍ لم تسقيها الأمطارُ مُدَّ زمنٌ بكى
جَرَّتِ الجنوبُ به فمالَ مُيَاسِراً حتى إذا بلغ الفوارعَ من سوى
وأصاب قُلَّةً غُرْبٍ بَعَجَتْ به رِيحٌ شَامِيَةٌ فيامنَ وانتحى⁽⁴⁰⁾

ويصف العاملي مشاهد السماء الماطرة شرقي اللوى من أرض حوران، فصوت الرعد المصاحب للريح الشامية المثقلة بالمطر وكأنه أصوات التسبيح، والشمس مضرجة بدمها عندما اغتالها الأفق عند الغروب، والبرق يلعب كالنيران المشتعلة، والجوزاء مدرار كثيرة الأمطار والخير، والسحاب بالك، في صورة تشكلت من مظاهر الطبيعة، وقد أضفى الشاعر عليها عنصري اللون والحركة، كما يبدو في قوله:

مُزَنٌ تَسْبِجُ في رِيحٍ شَامِيَةٍ مُكَلَّلٌ بَعَمَاءِ المَاءِ مُنْطَلِقُ

³⁷ - إحدى قرى حلب والمحاذية لقنسرين في طريق نحو البادية. الحموي، البلدان، ج2، ص390.

³⁸ - العاملي، الديوان، ص91.

³⁹ - الأخطل، الديوان، ص194-195.

⁴⁰ - العاملي، الديوان، ص165-166. (الغريفة، السماوة، المزهرة، أئيدة، الحثا، الفوارع، سوى: أسماء أماكن في الشام)

لما اكفهر شُريقِي اللوى وأوى إلى تواليه من سُفاره رفُؤ
حتى إذا المنظر الغربي جاد دماً من حمرة الشمس لما اغتالها الأفق
ألقى على ذات أحفارٍ كلاكله وشبّ نيرانه وانجاب يأتلق
وبات يحتلب الجوزاء دُرَّتْها بنوئها حين هاجت مريعٍ لثِقُ...⁽⁴¹⁾ ⁽⁴²⁾
وكان لارتفاع جبال الشام نصيب وافر من الثلوج كجبال لبنان التي أطلق عليها جبال الثلج، وكان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - من أوائل الشعراء الذين أطلقوا هذا الاسم على جبال لبنان، حيث وصف السحاب فوق جبال لبنان كأنها جماعات كثيرة متفرقة، يبدو ذلك في قوله:
من دون بُصرى ودونها جبلُ الث من ثَلْجٍ عليه السَّحابُ كالْقَدَدِ⁽⁴³⁾
ويصف العاملي الجبال الشاهقة شرقيّ لبنان، التي تكسوها الثلوج في فصل الشتاء، حتى إذا جاء فصل الصيف انحدرت الثلوج عنها، فبدت وكأنها عارية من ثوبها الأبيض، فقال:
من كلِّ أبهم يكسو الثَّلُجُ دَروته حتى فشا وبدا في الصيفِ عُريانا⁽⁴⁴⁾
ويصور الراعي النميري ارتفاع البلدات الشامية كخواريين والجولان، حتى كأن السحاب تمر بين جبالها، ويبرق البرق وينزل الثلج بين جنباتها، فقال:
ظلّلنا بخواريين في مُشمخَرَةٍ تمرُّ سحابٌ تحتنا وثلُوجُ
تري حارِبُ الجولانِ يُبرِّقُ دونه دَساكِرُ في أطرافِهِنَّ بُرُوجُ⁽⁴⁵⁾
وكان البرق في نوعيه الوابل والخلب عند عدي بن الرقاع العاملي - الذي لم يبرح بلاد الشام - مضرب الأمثال على التفاضل بين الناس في أخلاقهم، وعقولهم، فقال:
الناسُ أشباهٌ وبينَ حلومِهِم بؤنٌ كذاك تفاضلُ الأشياءِ
كالبرقِ منه وإبلٌ متتابعٌ جوُنٌ وآخرٌ ما ينوءُ بماءٍ⁽⁴⁶⁾
وكان للريح نصيب وافر في الشعر العربي، وتكاد تجتمع الأشعار التي قيلت في الريح في مقدمة القصيدة الطليعية، هذه الريح الشديدة المثقلة بالغبار والتراب التي عفت الديار وطمست آثارها، فهذا عدي بن الرقاع العاملي يصف قوة رياح الشام التي أتت على منازل الأحبة التي رحل عنها أهلها، وتركوها لمتغيرات الدهر، تسف عليها الرياح القوية رمالها فنسفت معالمها ومحت آثارها، كما يبدو في قوله:
وكان سُهكُ المعصرات كسونها ترب الفدافد واليفاع بمُنخُلٍ
لعبت بضاحيتها الرياحُ فأصبحتُ لأياً تأملها شفا المتأمل⁽⁴⁷⁾

41 - العاملي، الديوان، ص 146-147.

42 - اعتنى شعراء الشام بتصوير مشاهد فصل الشتاء. انظر العاملي، الديوان، ص 223. القطامي، الديوان، ص 132.

43 - ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج 8، ص 360.

44 - العاملي، الديوان، 172.

45 - الراعي النميري، الديوان، ص 25. انظر الحموي، معجم البلدان، ج 2، 205.

46 - العاملي، الديوان، ص 163.

47 - العاملي، الديوان، ص 68-69.

والرياح الشامية فيها الخير، إذ هي محملة بالأمطار، عند الأخطل الذي وصف ثورا وحشيا وقد انكفأت عليه الرياح الشامية بأمطارها فلجأ إلى الشجرة ليحتمي بها، كما يبدو في قوله:

فبات في جنب أرطاة تكفئه ریح شامية هبَّتْ بأمطار⁽⁴⁸⁾

وتشتهر الشام برياحها الماطرة القوية شتاءً، ومعها يضرب المثل بالكرم والجود وزكاة النفس، حيث كان الشعراء يمتدحون المطعمين الناس في الشتاء وهذه أعلى مراتب الامتداح بالكرم، لما عهد عن فصل الشتاء عند العرب من قلة الزاد وشح الموارد، فقال الأخطل:

المطعمون إذا هبَّتْ شامية غبراء يُجْزُرُ في شَفَانِها الصِّرْدُ⁽⁴⁹⁾

أما الصيف فإنه شديد الحرارة في بلاد الشام، حيث يلجأ الناس فيه إلى الآبار والعيون للتخفيف من حرارته لاسيما في نهار أيامه، فقد ورد عدي بن الرقاع العاملي على ماء القننيات من أرض خالة لبني كلب في بادية الشام، كما يبدو في قوله:

حتى وردنا القُنَيْنِيَّاتِ ضاحية في ساعة من نهار الصيف تلتهب⁽⁵⁰⁾

ويصف عدي بن الرقاع شدة الحر في فصل الصيف في بلاد الشام حتى حبس أهل القرية، حتى صاروا إلى الماء في بلدة مآب⁽⁵¹⁾، فقال:

قُرْبَةُ حَبْلٍ المَقِيطُ وأهلها بحشا مآب تَرى قُصُورُ فراها⁽⁵²⁾

وكانت النجوم في الليل مبعث الهموم لدى الشعراء في وحدتهم وتأملاتهم، فقد اعتنى الشعراء في مختلف العصور بذكرها ووصفها، فهذا أرطاة بن سهية المري يورقه الليل بدير الماطرون، ويصف نجومه، راسما لوحة فنية لصورة الكواكب في السماء، "ومشبهها الشعري بقنديل معلق، وسُهَيْلا بشهاب يحمله القابس فيحركه تجاه الريح فيزداد توهجا"⁽⁵³⁾، كما يبدو في قوله:

وداوية نازعتها الليل زائراً ولجزة تهديني النجوم الطوامس

أرقت بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارس

ولاح سهيل عن يمين كأنه شهاب نحاؤه وجهه الريح قابس

وأعرضت الشعري العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس⁽⁵⁴⁾

8 الحيوان في الطبيعة الشامية:

كشفت الأشعار الأموية عن ثروة حيوانية في بلاد الشام، حيث وصف الشعراء مختلف الحيوانات التي تعيش في هذه المنطقة، منها الحيوان الأليف والوحشي، فهذا القطامي يصف المطر الهائل على الحيوانات في الشام، فذكر البقر في المراعي، وذكر النعام في فرارها من المطر الغزير، كما يبدو في قوله:

وبات يحط من جبلي نزار غوارب سيله حُزْماً كبارا

48 - الأخطل، الديوان، ص124.

49 - الأخطل، الديوان، ص306.

50 - العاملي، الديوان، 246. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص339-340.

51 - مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، اشتهرت بالخمرة. انظر الحموي، معجم البلدان، ج5، ص31.

52 - العاملي، الديوان، ص99. انظر ديوانه، ص155.

53 - الفايز، شعر القبائل اليمانية الشامية في العصر الأموي، ص177.

54 - أرطاة بن سهية، الديوان، ص69.

يسج تغرق النجوات منه ويبيث من مرابعها الصوارا
ويصطاد الرئال إذا علاها وإن أمعن من فزع فرارا⁽⁵⁵⁾

وذكر جرير الثيران الموجودة في أرض الرصافة، وقد شبهها في لونها برؤوس المجوس في لباسهم الأبيض يوم عيدهم، فقال:

نظرت من الرصافة أين حجز ورمل بين أهلها وبيد
بها الثيران تحسب حين تضحى مرازية لها بهرة عيد⁽⁵⁶⁾

ويضرب المثل بجمال جاذر قرية جاسم القريبة من دمشق، التي اشتهرت بجمالها الطبيعي، فقد عمد عدي بن الرقاع العاملي إلى تصوير عيني محبوبته بعيون الجاذر، فقال:

وكأنها وسط النساء أعازها عيني أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرثقت في عيني سنة وليس بنائم⁽⁵⁷⁾

وإذ ترمز الجبال السامقة إلى البقاء والخلود عند الشعراء، فإننا نجد ذكر جبال الشام الشاهقة مقرونا بحيوان الوعل الذي اعتصم بذراها الوعرة، واختفى بين صخورها، فأمن من العوادي والنكبات، حتى كانت ذرا الجبال من أعز أصدقائه في معاشته لها، فقال عدي العاملي:

من كل أبهم يكسو الثلج ذروته حتى فشا وبدا في الصيف غريانا
صعب الشواقي مغبر بناكبه ترى به المغفرات العصم أخذانا⁽⁵⁸⁾

ويذكر عدي بن الرقاع العاملي الوعل في معرض حكمته في نظرتة إلى الحياة والموت، من باب التأسي بموت الوعل التي احتمت في رؤوس الجبال المرتفعة، والتذكرة بفناء الخلق، كما يبدو في قوله:

لو أخطأ الموت شيئا أو تخطأه لأخطأ الأعصم المستوعل الصدا
في شمخ تهاب الطير ذروته يعلو الشواقي منها الشم والقلا⁽⁵⁹⁾

وكثرت الطيور في بلاد الشام، حتى عرفت بعض المناطق بها، فهذا أبو دهب يصف طائر القطا في دومة⁽⁶⁰⁾، عبر رحلته، إذ يصوت ويلغظ بأصواته المبهمة المختلطة فيقول:

وكانت قبيل الصبح تنبذ رحلها بدومة من لغط القطا المتبدد⁽⁶¹⁾

⁵⁵ - القطامي، الديوان، ص132.

⁵⁶ - جرير، الديوان، ص116. حجر ورمل موضعان. انظر الحموي: معجم البلدان، ج2، ص221. ج3، ص69. هراة: مدينة بفارس بالقرب من إصطخر، كثيرة البساتين. انظر الحموي: معجم البلدان، ج5، ص397. مرازية: مفردا مرزبان: الفارس الشجاع والأمير المقدم دون الملك عند الفرس. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة رزب.

⁵⁷ - العاملي، الديوان، ص122.

⁵⁸ - العاملي، الديوان، ص172.

⁵⁹ - العاملي، الديوان، ص218.

⁶⁰ - إحدى قرى غوطة دمشق. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص486.

⁶¹ - أبو دهب الجمحي، الديوان، ص116. (الإلغاط: وصف لصوت القطا والحمام، وقيل في المثل: إنه لأصدق من قطاة. وقطت القطاة أي صوتت وحدها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادتا قطا، لغط).

واشتهرت بلدة رجلة أحجاء بالنعام، وكان الراعي النميري قد شبه النوق الخائفة من ناقته وقد نفرت منها بالنعام، كما يبدو في قوله:

فلما علت ذات السلاسل وانتحت لها مُصغياتٌ للنَّجاء عواسِرُ
قوالص أطراف المسوح كأنها برجلة أحجاءٍ نعامٌ نوافِرُ⁽⁶²⁾

(9) المياه والطبيعة الشامية:

تزرع بلاد الشام بروافدها المائية كالبهار والأنهار والآبار والعيون والينابيع التي تُغذي أكثر أراضيها، ما جعلها تربة خصبة للزراعة حتى كثرت بساتينها وحدائقها، فكانت لأهلها وللوافدين عليها ذات فائدة مادية غذائية، وكذلك تحققت فائدتها المعنوية من خلال ارتيادها للراحة والاستجمام في العصر الأموي وما تلاه من العصور اللاحقة.

إن وصف البحر والنهر ورد قديماً في قصائد الشعراء منذ العصر الجاهلي، وعلى الرغم من قلة خوضهم في البحر إلا أنهم وصفوه واستلهموه في مدائحهم، فأشاروا إليه عند تشبيه الممدوح في كرمه وعطائه واتساع حلمه وعفوه، وقد نهج شعراء العصر الأموي نهج القدماء في أوصافهم للبحر، وتقننوا في صورته عبر أغراضهم الشعرية، " إذ شبهوا في بعضها الظعن المرتحلة بالسفن⁽⁶³⁾، وشبهوا في بعضها المحبوبة بالدرة⁽⁶⁴⁾، ووصفوا في غيرها الرحلة النهرية التجارية أو التاريخية، وشبهوا في بعضها التمكن من قول الشعر بمهارة الحوت في العوم والسباحة في البحر"⁽⁶⁵⁾.

وكان قلة من الشعراء الأمويين قد وصفوا البحر والنهر في بلاد الشام، إذ لم يعرف العرب ركوب البحر في الزمن السابق، بل ظلوا متهيئين منه مبتعدين عنه، مستأنسين بالصحراء التي خبروها وأكثرها من وصفها، ومع اختلاف المكان في بلاد الشام عن الجزيرة العربية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية، فقد كان لزاماً على المسلمين حماية الثغور البرية والبحرية في الدولة، وتطوير الوسائل القتالية والدفاعية في هذا العصر، خاصة وأنهم أمام دولتي الفرس والروم اللتين عرفتا خوض البحر والتقنن في ركوبه. وكان فواز طوقان قد أشار إلى تجنب الأمويين لساحل بحر لبنان⁽⁶⁶⁾ في تعقيبه على شعر الوليد بن يزيد، لأنهم لم يعتادوا على ركوب البحر ولبعد الساحل عن مراكز الدولة، وهذا ما يصدق وصف أعرابي للبحر الشامي وقد غزا فيه في عهد هشام بن عبد الملك، وقد راعه صورة البحر، وأصوات أمواجه الهادرة، وقد أصابته أهواله، فقال:

أقولُ وقد لاجَ السفينُ ملججاً وقد بُعدتُ بعد التَّقَرُّبِ صوُرُ
وقد عصفت ريح وللموج قاصفٌ وللبحر من تحت السفين هديرُ
فلله رأيٌ قادنِي لسفينةٍ وأخضرُ مؤازرَ البَرارِ يَمورُ
تري متنه سهاً إذا الريح أفلعت وإن عصفت فالسهلُ منه وُعوُرُ
لئن وقعت رجلاي في الأرض مرّةً وحنّ لأصحاب السفين وكورُ
وسلّمتُ من موجٍ كأن متونه حراءٌ بدت أركانه وشبيرُ⁽⁶⁷⁾

⁶² - الراعي النميري، الديوان، ص124. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص28.

⁶³ - مثاله قول العاملي، الديوان، ص124.

⁶⁴ - مثاله في الغزل قول أبي دهب الجمحي: وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون. الديوان، ص69.

⁶⁵ - عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي، من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، ص41.

⁶⁶ - انظر طوقان، الحائر بحث في القصور الأموية في البادية، ص53. الوليد بن يزيد، الديوان، ص29.

⁶⁷ - الحموي، معجم البلدان، ج3، ص333. انظر عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي، ص46.

ولم يذكر الشعراء البحر الشامي، بقدر ما ذكرت الأنهار والعيون والآبار، فقد كثرت الأنهار في بلاد الشام، وتتابع ذكرها في معرض الأغراض الشعرية المختلفة، فهذا جرير يذكر نهري الهني والمري بالقرب من الرقة والرافقة، اللذين حفرهما هشام بن عبد الملك وأجرى عليهما القنى الجوفاء الواسعة من نهر الفرات، وأحدث بهما واسط الرقة⁽⁶⁸⁾، فقال في معرض مديحه لهشام بن عبد الملك:

ملكوا البلاد فسُخِّرَتْ أنهارها في غير مظلمة ولا تَبَعِ الرِّيا
وأُتِيَتْ من جَذْبِ الفراتِ جوارياً منها الهنيّ وسائِحٌ في قرقرى
والمجدُ للزُّند الذي أُوْرِيَتْهُ بخَرْ يمدُّ عُبابُهُ جوفَ القنى⁽⁶⁹⁾

ويكشف جرير عن المجهود الذي بُذل في شق القنوات والأنهار عبر الجبال والحجارة الصلبة، وإحياء الأراضي الزراعية في الشام، فقال مخاطباً هشام بن عبد الملك:

شَقَقْتَ من الفراتِ مُباركاتٍ جوارِي قد بلغنَ كما تريدُ
وسُخِّرْتَ الجبالَ وَكُنَّ خُرْساً يُقَطَّعُ في مناكبها الحديد
بلغت من الهنيّ فقلتُ شكراً هناك وَسُهِّلَ الجبلُ الصَّلُودُ⁽⁷⁰⁾

ويصف عبيد الله بن قيس الرقيات غزارة المياه في نهر الفرات، إذ يغمر جنبات الأرض من حوله، فتستفيد منه الرقة والرافقة ذات الفضاء الواسع والأراضي الخصبة⁽⁷¹⁾، فقال:

ذكرتُكَ إذ فاضَ الفراتُ بأرضنا وجاشَ بأعلى الرِّقَّتَيْنِ بحارها⁽⁷²⁾
ويكشف الأخطل عن منابع نهر الفرات في جبال الروم، فيقول:
مسحُفراً من جبال الرومِ تسترُهُ منها أكافيفُ فيها دونه زورُ⁽⁷³⁾

ويشير الراعي النميري إلى الأنهار التي تنعم بها مدينة دمشق ذات الأنهار الزاخرة بالماء والحيوية، حتى لسمع صوت هدير مياهها، كما يبدو في قوله:

شربنا بِبَحْرٍ من أُمِيَّةٍ دونه دمشقٌ وأنهار لهن عجيج⁽⁷⁴⁾

وذكر الشعراء بعض أسماء الأنهار الموجودة في بلاد الشام، كان من أبرزها نهر بردى، الذي أشار إليه الراعي النميري في شعره⁽⁷⁵⁾، ويرى جرير أن القوم لا ورد لهم عند غيره من الأنهار، فقال:

لا ورد للقوم إن لم يعزفوا⁽⁷⁶⁾ بردى إذا تجوَّب عن أعناقها السَدَفُ⁽⁷⁷⁾

⁶⁸ - انظر الحموي: معجم البلدان، ج5، ص419.

⁶⁹ - جرير، الديوان، ص11. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص419. (قرقرى: أرض باليمامة. انظر الحموي، معجم البلدان، ج4، ص326).

⁷⁰ - جرير. الديوان، ص118.

⁷¹ - انظر عن الرافقة والرقة السوداء والبيضاء ورقة واسط: الحموي: معجم البلدان، ج3، ص15، 60.

⁷² - الرقيات، الديوان، ص83.

⁷³ - الأخطل، الديوان، ص148.

⁷⁴ - الراعي النميري، الديوان، ص26.

⁷⁵ - انظر الراعي النميري، الديوان، ص30.

⁷⁶ - العزف الإقامة في المكان للأكل أو الشرب. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة عزف.

ويذكر كثير عزة أنهار البضيع⁽⁷⁸⁾ في معرض مدحه للخليفة عبد الملك بن مروان، فقال:

سيأتي أمير المؤمنين ودونه رحابٌ وأنهارُ البُضِيعِ وجاسمٌ
ثنائي تُنميه عليّ ومِدحتي سمامٌ على رُكبانهنَّ العمامُ⁽⁷⁹⁾

ويرى حسين عطوان أن عبيد الله بن قيس الرقيات أول من طور وصف الرحلة النهرية، فنقل الوصف من مرحلة التشبيه التقليدي إلى تشخيص رحلة الطعان في السفن عبر حديثه عن نهر النيل⁽⁸⁰⁾، ثم احتذى الأخطل حذوه في وصفه نساء قومه في ركوبهن نهر الفرات ورحلتهم إلى ديارهن بالجزيرة الفراتية⁽⁸¹⁾، وقد وصف قوة النهر وتضارب أمواجه، كما يبدو في قوله:

ففارَقَ الخليطُ على سفينٍ تشقُّ بهنَّ أمواجاً صعباً
يعجُّ الماءُ تحتَ مُسَحَّرَاتٍ يصكُّ الكارَ والخشبُ الصَّلابا
يعمن على كلالهن فيه ولو يُزجى إليه الفيلُ هابا
إذا ما اضطرَّهنَّ إلى مضيقٍ وموجُ البحرِ يضطرُّ الحبابا⁽⁸²⁾

ويصف الأخطل قوة تدفق نهر الفرات، واطراده وكثرة خيراته وفيضه على أهل القرى المحاذية له مثل بلدتي حامر وعانة في بلاد الشام، جاء ذلك في معرض مدحه ليزيد بن عبد الملك، فقال:

وما مزيدٌ يعلو جزائر حامر يشقُّ إليها خيُُرانا وغرقدا⁽⁸³⁾
تحرَّز منه أهلُ عانةَ بعدما كسا سورها الأعلى غُثاءً منصداً⁽⁸⁴⁾
بمُطَرَّدِ الآذِي جُونِ كأنما زفى بالقراقرير النعامُ المُطَرِّدا
كأنَ بناتِ الماءِ في حَجَرَاتِهِ أباريقُ أهدتها دِيافُ لصرخدا
بأجودَ سبباً من يزيدٍ إذا بدثَ لنا بُخْثُهُ يحملُنْ مُلكاً وسُودداً⁽⁸⁵⁾

ويذكر عدي بن الرقاع العاملي بعض مواضع الماء في الشام في حديثه عن قطعان العير، فقال:

فترددن بالسماوة حتى كدَّبتهنَّ غُدرُها والنَّهَاءُ
فألَمْتُ بذِي المَويِقِ لَمَّا جفَّ عنها مُصدَّعُ فالنَّضَاءُ
دانياتٍ للجَدِّ حتى نهاها من جنوبِ البضِيعِ ماءً رواءً⁽⁸⁶⁾

77 - جرير، الديوان، ص306.

78 - البضيع: جبل بالشام من نواحي الغوطة. انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص444.

79 - انظر كثير عزة، الديوان، ص246.

80 - انظر عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي، ص42. وانظر الرقيات، الديوان، ص158-159.

81 - انظر عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي، ص42-43.

82 - الأخطل، الديوان، ص233.

83 - حامر: ناحية على شط الفرات بين منبج والرقّة. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص207.

84 عانة: بلدة مشهورة بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة، مشرفة على الفرات، نسب العرب إليها الخمر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص72.

85 - الأخطل، الديوان، ص222. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص207.

86 - العاملي، الديوان، ص155-156.

ويبدأ الأخطل قصيدة له تتزخر مقدماتها بمنايع الماء وأصوله في بلاد الشام، فقد عرض لنهر الحفير⁽⁸⁷⁾، ومياه جبال السيلي، وعيون العوير، جاء فيها قوله:

عفا ممن عهدت به حفيرُ فأجبالُ السيلي فالعويرُ⁽⁸⁸⁾

وكانت عيون الشام ذات المياه العذبة الصافية مضرب الأمثال، لدى الشعراء، إذ علل الأخطل جودة الخمرة البيسانية بمزجها مع الماء الصافي من عيون يبرود، فقال:

من خمر بيسانَ صِرْفاً فوقها حبٌّ شيبت به نُطْفَةٌ من ماءٍ يبرود⁽⁸⁹⁾

وتكثر العيون في بادية كلب بالشام، وكان أشهر هذه العيون أرض بنات قين، التي سميت بذلك نسبة إلى القين بن تغلب القضاعي الذي كان إذا ورد على عيونها يقول: هذه بناتي⁽⁹⁰⁾. قال الراعي النميري:

فسيري واشربي بنات قين⁽⁹¹⁾ وما لك بالسماوة من معاد⁽⁹²⁾

وتكون مياه العيون والآبار في الشام باردة عذبة في فصل الصيف، حيث يرد الناس على القنينات من أرض خالة لبني كلب في بادية الشام، كما يبدو في قول عدي بن الرقاع العاملي:

حتى وردنا القنينات ضاحيةً في ساعة من نهار الصيف تلتهب

فجاد بالبارد العذب الزلال لنا ما دام يُمسكُ عودِي دُلونا الكَرْبُ

من ماء خالة جِياشَ بجَمته مما توارثه الأوحادُ والعَنبُ⁽⁹³⁾

وتكثر الآبار والينابيع في دومة القريبة من دمشق، وقد جاء ذلك في وصف أبي دهب الجمحي لناقته الصبورة التي لم تنجح إلى الآبار للشرب حتى أشفق عليها، وعطف بها فشربت، كما يبدو في قوله:

ومرّت على أشطان دُومة بالصّحى فما خزرت للماء عينا ولا فما⁽⁹⁴⁾

وما شربت حتى ثنيت زمامها وخفت عليها أن تُحرَّ وتُكلما⁽⁹⁵⁾

الخاتمة:

لقد برزت الطبيعة الشامية بوضوح في ثانيا الموضوعات والأغراض الشعرية عند شعراء العصر الأموي، فعرضوا لمشاهد الطبيعة المختلفة في نواحي الشام، كان من أبرزها وصف الطلل والرحلة عبر البادية الشامية، واستوقفهم الربوع الخضراء والرياض الغناء، ومنايع المياه الكثيرة في بلاد الشام، ولم يغفل الشعراء وصف النباتات والحيوانات فيها.

⁸⁷ - موضع في الأردن سكنه قبيلة القين بن جسر. انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص495.

⁸⁸ - الأخطل، الديوان، ص194.

⁸⁹ - الأخطل، الديوان، ص372.

⁹⁰ - انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص495.

⁹¹ - بنات قين: موضع بالشام في بادية السماوة، فيه عيون كثيرة. انظر الحموي، معجم البلدان، ج1، ص495.

⁹² - الراعي النميري، الديوان، ص77.

⁹³ - العاملي، الديوان، ص246. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص340.

⁹⁴ (أشطان: مفردا شطن وهو الحبل الطويل المفتول، يسقى به من البئر. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شطن). (الخرز: النظر الذي

كأنه في أحد الشقين. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خرز)

⁹⁵ - أبو دهب الجمحي، الديوان، ص108. (دومة: من قرى غوطة دمشق. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص486)

وكانت بلاد الشام - حالها حال الأماكن المختلفة- تحتفظ برمزية البقاء والخلود نظرا لثبات المكان فيها عبر العصور المتتالية. حيث أسهمت الأشعار التي تعرضت للطبيعة الجغرافية في تكوين صورة للمكان الشامي، ورسم الانطباع العام والتصور الفكري عن لبلاد الشام في هذه الحقبة الزمنية، مما يؤكد على كثرة الشعراء الذين تحركوا في في هذه البلاد متأثرين بجمالها وتاريخها بصماتهم فيها. إذ صدرت هذه الأشعار عن أثر بلاد الشام في مشاعر الشعراء الصادقة حول مشاهداتهم وتجاربهم مع الطبيعة الشامية.

وتفاعل المكان الشامي مع الأغراض الشعرية التي ارتبطت به عند مختلف الشعراء الذين تصدروا للمشهد الشامي، إذ استنطقت بلاد الشام كل ما يعتلج في قلوب الشعراء من الأفكار والمشاعر والأحاسيس تجاه بلاد الشام، فكانت أغراضهم وموضوعات شعرهم تنتظم بخيط واحد يصل أوله بآخره عند المشهد الشامي.

* قائمة المصادر والمراجع:

- الأحوص، عبد الله بن محمد بن عاصم بن ثابت الأنصاري (105هـ)، الديوان، ط2، تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة، مطبعة المدني، 1411هـ-1990م.
- الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (90هـ)، الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، ط4، دار الفكر، دمشق، 1996م.
- أرطاة بن سهية المرّي، الديوان، تحقيق شريف علاونة، ط1، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 1427هـ-2006م.
- بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، القاهرة، دار نهضة مصر، 1994م.
- جرير، جرير بن عطية الخطفي (114هـ)، الديوان، دار بيروت، بيروت، 1406هـ-1986م.
- حاي، إيليا، (1980م)، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ-1977م.
- أبو دهب الجمحي، وهب بن زمعة بن أسيد بن لؤي بن غالب القرشي (63هـ)، الديوان، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن، ط1، مطبعة القضاء، النجف الأشرف، 1392هـ-1972م.
- الراعي النميري، الديوان، تحقيق راينهت فايرت، دار فرانتس شتاينر بفسبادن، بيروت، 1401هـ-1980م.
- الرقيات، عبيد الله بن قيس (ت85هـ)، الديوان، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت.
- طوقان، فواز أحمد، (1979م)، الحائر بحث في القصور الأموية في البادية، عمان، وزارة الثقافة.
- عطوان، حسين، مقالات في الشعر ونقده، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- عطوان، حسين، (1402هـ-1982م) وصف البحر والنهر في الشعر العربي، من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، ط2، دار الجيل، بيروت،
- علي، أحمد إسماعيل، (1994م)، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد وحتى نهاية العصر الأموي، ط3، دار دمشق، دمشق.
- العالم، إسماعيل أحمد، (1407هـ-1987م)، وصف الطبيعة في الشعر الأموي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- العامللي، عدي بن زيد مالك بن عدي بن الرقاع (95هـ)، الديوان، تحقيق نوري القيسي وحاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1407هـ-1987م.
- الفايز، مفلح النمر (2002م)، شعر القبائل اليمانية الشامية في العصر الأموي، ط1، عمان، دار الينابيع.

الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة الدارمي (110هـ)، الديوان، ط1، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ-1978م.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت.

القطامي، عمير بن شبيب بن تغلب بن حبيب، الديوان، ط1، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، بيروت، دار الثقافة، 1960م.

قناوي، عبد العظيم علي، (1368هـ-1949م)، الوصف في الشعر العربي، ط1، مصر، مطبعة مصطفى الباني الحلبي
القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط4، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1972م،

كثير عزة، كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح الخزاعي (105هـ)، الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1391هـ-1971م.

ماجد، عبد المنعم، (1963م)، التاريخ السياسي، مصر، مطبعة مصر

الوليد بن يزيد (126هـ)، الديوان، تحقيق حسين عطوان، ط1، عمان، مكتبة الأقصى، 1979م

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1956م.

الهيبي، أحمد فوزي، الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء، ط1، الكويت، مكتبة

المعلا، 1407هـ/1987م..